دوافع نشأة لزوميات أبي العلاء المعري في نظر الدارسين المحدثين

ا.م.د. علي كاظم المصلاوي
جامعة كربلاء/ كلية التربية للعلوم الانسانية

ياسين خصير عبيس محسن
جامعة كربلاء /التربية للعلوم الانسانية

بحث مستل

ملخص البحث

يشتغل هذا البحث على الخطاب النقدي المُحْدَث الذي دار حول ديوان عُدّ من أبرز نتاجات أبي العلاء المعري وهو ديوان (اللزوميات) ، ليقف عند دوافع النشأة بحسب ما أنتجه هذا الخطاب النقدي بمختلف توجهاته، وقد نظر لهذا الجانب – جانب دوافع النشأة – من زوايا مختلفة : فمن الدارسين المحدثين من رأى أنّ المعرّي أراد من وراء ديوانه هذا إبراز صورة التحدّي ولا سيّما انّه خاطب فيه طبقة عليا من الناس، هم العلماء والأُدباء ممّن يفقهون حوشي اللغة وغريبها، لذلك فهو في لزومياته يشغلنا بكثرة التصوير الحسّي وحبّ الاستشهادات المختلفة، والولوع بالتحدّي، وإظهار البراعة في الكتابة، وكثافة المعرفة والذكاء الحادّ.

ومن الدارسين من علّل تلك الدوافع، بإبراز المعرّي لإمكاناته ومقدرته اللغوية، فالمعرّي كان جاداً كلّ الجد في إبراز موهبته وقدرة تمكّنه، فضلاً عن أنّ اللزوميات ما يقع في دائرة خطاب الخاصّة، وهي لهذا السبب تقتضي لغة وأُسلوباً يرتفعان بها إلى مستوى من تخاطبهم، ويصرفان عنها من لا يلائمونها ولا تلائمهم.

ومنهم من ذهب بالقول إلى أنّ المعرّي أراد معالجة موضوع أسمى وأهمّ في ديوانه هذا، حتّى صار همّه الأكبر ألا وهو موضوع الإنسان بوصفه عنصراً تحكمه علاقات وواجبات تجاه المجتمع، وما يدور حوله من قضايا حاول تفسيرها.

والباحث سيسلط الضوء على هذه الاقوال، لمعرفة أيّ الدوافع كان وراء هذا الديوان الكبير وماهي ابرز القضايا التي عالجها المعري فيه؟.

ABSTRACT

Stop some modern scholars when motivated origination Allzumiat , and looked at the factors that produced this Court , some of whom felt that the Maari wanted from behind his office this visibility challenge , particularly as it addressed the top layer of the people , are the scholars and writers who understand Houca language and Graybha , so he Zumyate preoccupies us in abundance imaging sensuous love of various citations , and Alolua challenge , and demonstrate proficiency in writing , and knowledge-intensive and sharp intellect.

And students from the ills of those motives , highlighting Marri to its potential and ability of language , Valmara was serious all seriously in highlighting the talent and the ability of being able to , as well as that Allzumiat is located in the Department of Speech own , and for this reason requires a language and a way Ertfan to the level of Tkhadobam , and Barvan them of not Alaúmunha not a suitable.

Some of them went by saying that Marri wanted to address the issue of the highest and most important in his office that , until he became the biggest main concern , namely human subject as an element governed relations and duties towards society , and what is going on around him tried to issues of interpretation.

The researcher will shed light on these words , to find out what the motives were behind this Court and what great Ibrzalqzaia addressed by the Maari. ?

توطئة:

قبل الدخول في موضوع دوافع أبي العلاء في نظم اللزوميات نتعرّف على الدوافع في اللغة والاصطلاح، وأنواع الدوافع المعروفة والمصنّفة من لدن علماء النفس، بما يحقّق إحاطة وافية بالموضوع.

فالدوافع في اللغة، مفردها «دافع»، وهو اسم فاعل مشتق من الفعل الثلاثي «دفع» وفي المعاجم العربية وردت مادّته بمعانٍ متعدّدة؛ ففي لسان العرب، الحمل على فعل الشيء، يقال: «دفع ناقته»، أي حملها على السير، وكذلك التعلّق بالشيء ولعاً، يقال: «دافع الرجل أمر كذا» إذا أولع به وانهمك فيه بحيث لم ينشغل بأمرٍ غيره، وكذلك الازالة بقوّة، يقال: «دفع الشيء دفعاً» أي: نحّاه وأزاله بقوّة[1].

وبمعنى المحرّك، يقال: «ذاك دفعه إلى كذا» أي هو محرّكه إلى فعل ذلك الشيء أو تركه[2]. أمّا في الاصطلاح فإنّ الدوافع تُعرَّف بأنّها: «القوى المحرّكة التي تبعث النشاط في الكائن الحي، وتحمله على سلوك ما (إيجابي أو سلبي)؛ تلبية لإلحاح حاجة مادّية أو معنوية، وتحقيقاً لهدف أو أهداف معيّنة»[3]. والدوافع في علم النفس تصنّف إلى قسمين رئيسين هما:

(1) **الدوافع الفطرية:** و «هي الدوافع التي تكمن في الإنسان، ويولد مزوّداً بها، ولا يمكنه الاستقلال عنها أو الانفصال، وإن أمكن تنظيمها في مراحل العمر»[4]. وعلى أساس ذلك، فمنها ما يرتبط بالجانب البدني (المادّي) ومنها ما يرتبط بالجانب النفسي (الروحي)[5].

(2) **الدوافع المكتسبة:** وهي الدوافع التي «لا يولد الفرد مزوّداً بها، بل يكتسبها بعد ولادته من خلال التطوّر الزمني للإنسان، وهي تتنوّع مع تنوّع خبراته، والمواقف التي يتعرّض لها، وطبيعة كلّ مرحلة عمرية يمرّ بها»[6].

وعلى إثر ذلك يمكن القول، بأنّ تلك الدوافع الفطرية والمكتسبة هي التي توجّه ذلك الإنسان، غير متناسين بذلك أثر البيئة الخارجية التي لها الأثر الأكبر في تحديد طبيعة الإنسان ومنظاره إلى الحياة، وبذلك تنشأ لديه دوافع نتيجة وجود حاجة معيّنة يسعى إلى إشباعها بأنماط من السلوك، وبعدّة طرق، وهذا ما نلمسه بأدقّ الصور عند المعرّي ودوافعه لنشأة اللزوميات، التي أراد عبرها أن يصحّح خللاً واقعاً في إحدى جوانب البيئة الخارجية: الدينية، أو الثقافية، أو الاجتماعية، أو الاقتصادية، أو السياسية، وانّ هذا الخلل يؤدّي إلى اعاقة في تحقيق الدوافع الإنسانية الأصيلة، التي يسعى المعرّي ـ من خلال لزومياته ـ أن يذكر ذلك المجتمع بها والمتّصلة بـ : الدعوة إلى الإصلاح في النواحي كافّة، بإصلاح المجتمع من العيوب، والدعوة إلى الأخلاق الحميدة والتحلّي بها، والإيمان بالله، وترك المحرّمات ... وغيرها من النواحي الايجابية.

كلّ ذلك نظر إليه المعرّي وضمّنه لزومياته، ولعلّ هذا الديوان «أوّل ديوان في اللغة العربية تناول مادّته من الحياة الاجتماعية على اختلاف مظاهرها»[7]،فالمعرّي نظر للحياة الاجتماعية كموضوع واحد وكمصدر واحد تنحدر منه الآراء والأخلاق والمذاهب، ولم يقتصرعلى الوصف الظاهري بل قصد إلى التحليل والانتقاد تمهيداً للارشاد والإصلاح[8].وعلى ذلك فدوافع اللزوميات عند المعري تتجلى في عدّة نقاط ، وهي على الآتي:

اولا: الدوافع النفسية

لو تلمسنا تعليل نشأة اللزوميات ودوافعها من منظار الدارسين المحدثين لوجدنا مجموعة من الدوافع، اتّصل بعضها بنفسية الشاعر وما فرضه عليه المجتمع، وبعضها الآخر اتّصل ببيئة الشاعر الاجتماعية والسياسية، وغيرها من الدوافع التي سيحاول هذا المبحث الاجابة عنها، على أنّ هناك دوافع عامة وراء ذلك الديوان ، منها[9]:

1ـ موهبة الشاعر الفذّة السامقة.
2ـ حافظته اللغوية الفنّية.
3ـ الفراغ الطويل الممض.
4ـ مجموعة من العوامل النفسية المعقّدة في تركيب الشاعر الداخلي.

فتآلفت هذه الدوافع جميعاً وكانت أبرز ثمراتها ديوان اللزوميات الضخم[10]. على انّ هذا الديوان فيه تحدٍّ لمعاصريه، وصورة من صور «التنفيس» و «التعويض» عمّا يجيش داخل تلك الشخصية المعقّدة[11].

فإنّ الدافع من وراء هذا الديوان هي صورة التحدّي التي أراد المعرّي إظهارها ولا سيّما إذا ما علمنا أنّه في لزومياته «يشغلنا بكثرة التصوير الحسّي وحب الاستشهادات المختلفة، والولوع بالتحدّي وإظهار البراعة في الكتابة، وكثافة المعرفة والذكاء الحادّ، في ملاحظة أوضاع الحقيقة»[12]، وأبو العلاء «عبقري لا شكّ في ذلك، لقد كان أعمى، ومع ذلك فإنّه كان يحيط بمعارف ـ في اللغة خاصّة ثمّ الأدب والتاريخ والمدارك الفكرية ـ لا تتأتّى أحياناً لنفر من المبصرين»[13].

لذلك فإنّ المعرّي في لزومياته خاطب طبقة عُليا من الناس، هم العلماء والأُدباء ممّن يفقهون حوشي اللغة وغريبها[14].

لذلك كان يصدر في لزومياته عن «دوافع نفسية معقّدة، تعجيزاً منه للآخرين، وتنفيساً عن دخيلته، وتسلية لنفسه، وإظهاراً لمحفوظته الغزير، وإيفاءً لخطّة دقيقة مرهقة فرضها على نفسه»[15].

وتتلخّص هذه النظرة في تحدّ المعرّي لمعاصريه، معتمداً في ذلك على مقدرته اللغوية وتمكّنه من فنّه، الذي سهّل له تلك المهمّة هذا من جانب، ومن جانب آخر تعدّ تلك اللزوميات صورة من صور التنفيس والتعويض عمّا يجيش داخل تلك الشخصية، وما هي إلّا نقلاً لتلك المعاناة بتلك الأشعار، تلك النظرة التي اتّسمت بكونها نزعة نفسية أكثر منها نزعة موضوعية فنّية، وقد لخّصها بعضهم بعدد من الأسئلة حول تفسير الدارسين لنشأة اللزوميات، وهي:

1ـ هل هي عقدة الشعور بالنقص والعجز؟ واجهها أبو العلاء دون أن يشعر بإظهار القوّة والتظاهر بالكبرياء، وتعويضاً لهذا النقص والعجز.
2ـ هل هي طبيعة المعرّي الوحشية، كانت تدفعه ـ من دون أن يشعر ـ إلى أن ينفر من المألوف والسهل ويأنس إلى الغريب الصعب.
3ـ هل هو الإحساس الطاغي بالتفوّق، دفعه ـ من دون أن يشعر ـ إلى ما يحقّق له السبق والتفرّد.
4ـ هل هو لون من نهج التشدّد، الذي طبع حياة المعرّي كلّها بطابعه فأخذ نفسه بالأشقّ والأصعب في كلّ ما يأتي وما يذر، بدءاً من طعامه وشرابه، وملبسه وفراشه، وانتهاءً إلى أدبه وفنّه؟
5ـ هل هو لون من الغرور، والاستعلاء، قمعه المعرّي قمعاً منذ اعتزل وارتهن نفسه في المحبسين، واختطّ لنفسه طريقاً أُخرى في الحياة، وفي فنّه الأدبي على السواء؟
6ـ هل هو لون من الحيل النفسية غير الشعورية، لجأت إليه نفس أبي العلاء ـ من دون أن يشعر ـ ترفيه عنها، وقد أدّاها ما أخذها به من جدّ، لا يأذن بهزل، ومن صرامة، لا تسمح بشيء من الترخّص؟

7- هل هو لون من الرياضة العقلية أو المعنوية، كان يرجى به الشيخ أوقات فراغه، ويبعد نفسه أشباح الملل، التي تطبق عليه في آناءً كثيرة من ليله الطويل، ونهاره المظلم، حين يخلو إلى نفسه، وتخلو نفسه إليه[16].

وقد ذهب من قبل لمثل هذا الرأي الدكتور طه حسين، الذي رأى أنّ «اللزوميات ليست نتيجة العمل وإنّما هي نتيجة الفراغ، وليست نتيجة الجدّ والكدّ، وإنّما هي نتيجة العبث واللعب وإن شئت فقل إنّها نتيجة عمل دعا إليه الفراغ ونتيجة جدّ جرّ إليه اللعب»[17].

وتفسيره في ذلك، أنّ المعرّي لزم داره قرابة نصف قرن، وانّ هذه المدّة الكبيرة والأعوام المتّصلة لا يمكن احتمالها في حياة مطّردة مستوية شبيه بعضها بعضاً. ويعرض بعد ذلك لعدّة آراء، منها: عدم تزوّجه وعيشه الحياة وحيداً، حتّى انّ خادمه كان يتركه كذلك.....، فماذا كان يعمل في ساعات الفراغ التي كانت تعرض عليه في كلّ نهار وفي كلّ ليل أثناء نصف قرن[18]؟!.

لذلك فإنّ الدكتور طه حسين يرى انّ هذا الفراغ حتّم على أبي العلاء التسلية والتلهية عن نفسه، فاستجابت له ذاكرة قوية، وحافظة نادرة، وعقل ذكي بعيد أماد التفكير، كل تلك العوامل تآلفت فوجد من خلالها ألفاظ اللغة العربية، ممّا سمعه وما قرأ في الكتب، وما روي من الشعر ... ونظر إلى الألفاظ وبين هذه المعاني، ثمّ نظر فوجد أوقات فراغ طويلة لا يطاق احتمالها ولا يمكن الصبر عليها، وكأنّ هناك تساؤل خطر في باله، أحسّ بضرورة الاجابة عليه، وهو: ما قيمة ما حصّل عليه من العلم إذا لم يعيناه على قطع أوقات الفراغ هذه؟! من خلال ذلك راح يعبث بالألفاظ والمعاني ألواناً من العبث لأنّه لم يكن يستطيع أن يصنع غير هذا[19].

لعلّ كلّ ذلك ارتبط بحياة المعرّي ارتباطاً وثيقاً خاصّة انّ من يتابع حياته يدرك «انّ أبا العلاء كان شخصية مركّبة المزاج والصفات فهو زاهد متواضع، ولكنّه يعتزّ أيّما اعتزاز بنفسه، وهو يعيش في صراع داخلي بسبب أُمور كثيرة ذاتية واجتماعية، ولكنه لم يكن مريضاً ...»[20].

وكأنّ ذلك الصراع الداخلي حتّم على المعرّي أن يتسلّى «بالشدّة عن الشدّة، وتلهّى بالرياضة عن الرياضة، واستعان على احتمال ما فرض على نفسه من العنف بتنويع هذا العنف نفسه والافتتان فيه»[21].

وأبو العلاء في ذلك ـ كما يراه الدكتور طه حسين ـ لم يرد أن يعذّب نفسه ويعذّب الناس فحسب، بل إلى جانب ذلك أراد التسلية والترفيه عن نفسه، وأن يبهر الناس ويكرههم على اكباره والإعجاب به[22].

ولم يكتفِ الدكتور طه حسين بعبث المعرّي الفلسفي، بل أضاف إلى ذلك فنون أُخرى من العبث ليست أقلّ منه تسلية وتلهية، من ذلك العبث بالنحو والصرف ـ ويورد لذلك أمثلة ويعلّق عليها ـ وكذلك عن عبثه بالألفاظ اللغوية، وكيف يوردها مشتبهة ثمّ يفسّرها كما يفسّر علماء اللغة ما يعرض لهم من الألفاظ المشكلة، والعبث الثالث الذي يعدّه الدكتور أهمّ من هذين النوعين السابقين وأجلّ خطراً، لأنّ المعرّي لا يقصد به إلى مجرّد التظرّف الفنّي ولا إلى مجرّد التفكّه ... وإنما يقصد إلى إظهار البراعة والتفوّق اللغوي، ويتمثّل ذلك بنوعٍ من الجناس ظريف يلتزم فيه المعرّي لفظ القافية نفسه في أوّل البيت أو في وسطه بحيث يتكرّر هذا اللفظ في البيت الواحد مرّتَين، ويدلّ على معنيين مختلفين، فيجمع بين الجناس وبين ردّ الصدر على العجز[23].

وعلى ذلك فإنّ اللزوميات «نتيجة الفراغ واللعب أو نتيجة العمل الذي دعا إليه الفراغ والجدّ الذي جرّ إليه اللعب»[24].

وتنطلق تفسيرات الدكتور طه حسين من خلال النزعة النفسية التي تولّدت من عِبر ذلك الصراع الداخلي في تلك الشخصية المعقّدة، والتي كوّنت له دافع انشاء اللزوميات لتعبّر عن نوع من الرياضة العقلية أو المعنوية في أوقات الفراغ، أو لون من الحيل النفسية غير الشعورية لجأت إليه نفس أبي العلاء، أو نهج من التشدّد، الذي طبع حياة المعرّي كلّها فأخذ نفسه بالأشق والأصعب، قد يكون دافع أبي العلاء بعض هذه العوامل، لكنّها ـ كما يراها بعض الباحثين ـ لا يقبل الوقوف عندها لسببين:

1- «انّها ـ على أحسن الفروض ـ تأويلات، تنتهي إلى ظنون حدسية لا سبيل للبرهنة أو التدليل على صحّتها، لأنّها ـ بطبيعتها ـ لا تخضع للاختبار والتحقيق العلمي»[25].

2- «إنّ هذا التفسير النفسي، الذي يرتكز على .. الباطن غير الشعوري متى قبلناه كان علينا أن نسلّم بأنّ أبا العلاء كان مريضاً نفسياً .. بدرجة أو بأُخرى، بينما سجّل حياة الرجل يقطع بأن كان يتمتّع بصحّة نفسية كاملة»[26].

ومن خلال تتبّع حياة الرجل، يبدو أنّ الرجل مدرك لما يفعل حتّى أنّه كان واعياً في عزلته وانقطاعه عن الحياة واعتزاله الشعر إلّا ما كان على شرطه في اللزوميات، من التزام الصدق، وشرف الغاية، وفي هذا دليل على وعيه الكبير فيما يعمل، «لقد كان أبو العلاء مدركاً لما يفعله في اللزوميات وواعياً له، وقد وصفه وصفاً موضوعياً دقيقاً، وفسّر لنا عمله، وبيّن ما كان من أثر لتكلّفه في شعره»[27].

ثانياً: الدوافع الموضوعية الفنية

يرى بعض الدارسين بأنّ دوافع نشأة اللزوميات ما هي إلّا دوافع موضوعية فنّية، فأبو العلاء أصغى لنفسه ولغيره، فيما يتلى القرآن الذي كان يحفظه عن ظهر قلب، وكيف أصغى لشعراء العربية على اختلاف أزمانهم وهم ينشدون أشعارهم، التي كان يحفظها، لا يكاد يفوته شيء منها، (كامرئ القيس، والأعشى، والنابغة الذبياني، وزهير بن أبي سلمى ... إلى إعجابه بالمتنبّي)، وهكذا أصبحت ذاكرته حافظة لتراث الشعر العربي يديره على عقله حيناً يتأمّله ويديره على غريزته حيناً يتذوّقه. ولذلك أصبح المعرّي خبيراً بذلك الشعر، يدرك مواطن القوّة فيه ويعرف مواضع الضعف منه، وقد مكّنه ذكاؤه العبقري والذاكرة الواعية الحادّة ومعرفة عميقة بلغة العرب وتراثها العلمي والأدبي[28].

والمتتبّع لما كتبه المعرّي في مقدّمة اللزوميات عن أضرب الشعر القديم والتمثيل للقافية وتقسيمه لها، يتبيّن له ثقافة المعرّي ومعارفه عن الشعر العربي قديمه ومحدثه إلى عصره[29].

انّ كلّ تلك الثقافة والمعارف عن الشعر العربي، في عقل المعرّي وذاكرته «وكأنّنا أمام حاسب آلي، وضع في ذاكرته تراث الشعر العربي جملةً وكانت النتائج النهائية ملخّصة في صفحة أو بضع صفحات، كتلك التي طالعنا بها أبو العلاء في مقدّمة

اللزوميات، وفيها خلاصة أمينة لاستقراء شامل وتحليل كافٍ واستخلاص دقيق لخصائص الشعر العربي من حيث الشكل»[30].

ويبدو عبر هذا الرأي أنّ أبا العلاء استخلص النتائج والدلالات من تلك الأشعار، بواسطة تلك الحافظة وتلك الذاكرة. ثمّ فسّرت تلك النتائج لتعطي أبا العلاء إمكانية التصرّف والاستعمال في توظيفه لما يريد من الألفاظ في أي اتّجاه يريد ويشاء. وهكذا أتى المعرّي في لزومياته بما لم يأت به الشعراء قبله في ديوانٍ واحد، بأن نظم على جميع البحور ما عدا ثلاثة، وعلى جميع حروف المعجم .

أمّا عن مصادر مقدّمة اللزوميات الرئيسة، فكانت: «علم العروض وآراء أعلامه، آثار فحول الشعراء، ثمّ آراؤه الخاصّة التي قاده إلى استنباطها اطّلاعه الواسع، ونقده المحكم، وذوقه المرهف»[31]، وانّ هذه المقدّمة جاءت في أغراض، يجملها الدكتور كمال اليازجي في أربعة، وهي:

1- ذكر أغراض الديوان:
2- التعريف بأُصول العروض ومصطلحاته.
3- بسط آرائه الخاصّة في العروض.
4- ذكر ما لزمه عمّا لا يلزم[32].

وبعد معرفة الأغراض التي أشار إليها في مقدّمته وذكر آراءه وكيف اعتمد فيها على مصادر عدّة بدا لنا مؤلّف اللزوميات ومبدعها أديباً، شاعراً، فيلسوفاً، ناقداً، راوية لتراث الشعر قبله، حافظاً له، خبيراً به، عالماً بالعربية وعلومها، كلّ ذلك مهّد له بطلبه العلم في الشام والعراق، ورؤيته لنظرائه من العلماء فضلاً عن انشائه «الفصول والغايات» وديوان «سقط الزند» كوّنت لديه ثقافة عالية مكّنته من أن يجعل تلك الأفكار في ذلك الديوان[33]. على أن لا ننسى تلك العزلة التي فرضها على نفسه بعد رجوعه من بغداد والتي كانت السبب الرئيس في نشأة اللزوميات ما بين سنتي 400هـ و420هـ كما يقدّرها المدقّقين من الدارسين[34] تلك العزلة التي فرضت دنيا أبي العلاء، وعالمه الذي ينسج فيه بفكره وخياله وتأمّله ذلك العالم هو عالم «اللغة» وليس شيئاً سوى اللغة[35]، فقد «غدت عالمه الوحيد، يحيا فيه بعقله، ويفكّر ويتأمّل ويتفلسف، وقد غدت الألفاظ عنده بديلاً من أشياء العالم عند المبصرين»[36].

انّ تحوّل المعرّي إلى هذا العالم ـ عالم اللغة ـ فرض عليه إبراز إمكاناته ومقدرته وتفوّقه على غيره من الشعراء والعلماء آنذاك كلّ ذلك دفعه إليه ما فرضه على نفسه من لزوم ما لا يلزم، ومن كلّف ثلاث، تلك الكلف التي كانت «وسيلة جادّة، وحلاً موضوعياً موفّقاً، وأداة فنّية ملائمة لشاعر وهب من مقوّمات الشاعرية ـ طبعاً واكتساباً ـ ما هيّأه لمزاحمة الفحول ومناطحتهم وقُدر عليه ـ في الآن عينه ـ ما جعل إرادته مرتهنة بإرادة غيره»[37].

نلحظ من خلال ذلك انّ أبا العلاء أراد من تلك الدوافع إظهار القيمة الفنّية والموضوعية عبر إبراز مقدرته اللغوية وكيفية توظيفه لتلك الألفاظ، وليس كما ذهب إليه الدكتور طه حسين من أنّ المعرّي أراد بذلك اللعب واللهو والعبث كما مرّ معنا في مقدّمة هذه الفقرة. بل كان جاداً كلّ الجدّ في إبراز موهبته وقدرة تمكّنه، فضلاً عن أنّ اللزوميات «ما يقع في دائرة خطاب الخاصّة، وهي لهذا السبب تقتضي لغة وأُسلوباً يرتفعان بها إلى مستوى من تخاطبهم، ويصرفان عنها من لا يلائمونها ولا تلائمهم»[38].

لا ريب في أنّ القارئ للزوميات عبر تلك الكلف، يُدفع إلى جهدٍ أكبر في فهمها وانتزاع مراميها، فضلاً عن المشقّة والإجهاد «لكنّها مشقّة تحتمل واجهاد يطاق، ولعلّ القارئ أن يجد في هذه المشقّة لذّة حين يقهرها، ولعلّه أن يجد في هذا الجهد متعة حين يظهر عليه، وهو منته آخر الأمر إلى الفهم عن أبي العلاء، والوصول إلى أغراضه ومراميه»[39].

وممّا تقدّم يمكن القول بأنّ المعرّي أراد إبراز مقدرته من خلال العالم الذي فرض عليه ألا وهو عالم اللغة من خلال معالجته لموضوعات تدخل في باب التأمّل والفلسفة، وإيجاد الحلول لمشكلات كبرى ومعقّدة في شؤون الحياة وما يتّصل بالدين والاخلاق ولعلّ «كتاب اللزوميات أوّل ديوان في اللغة العربية تناول مادّته من الحياة الاجتماعية على اختلاف ظروفها»[40]، فالمعرّي نظر في الحياة الاجتماعية كموضوع واحد وكمصدر واحد تنحدر منه الآراء والأخلاق والمذاهب، ولم يقتصر على الوصف الظاهري بل قصد إلى التحليل والانتقاد تمهيداً للارشاد والإصلاح[41].

ثالثاً:الدوافع الاجتماعية

لم تقف دوافع نشأة اللزوميات عند إبراز المقدرة والإمكانات اللغوية، بل عالجت موضوع الإنسان «بوصفه عنصراً تحكمه علاقات وواجبات وحقوق تجاه المجتمع الذي يعيش فيه، كذلك نظم علاقة الإنسان وتفاعله مع القوانين التي تربطه بعالمه وبني جنسه وبخالقه العظيم تقدّست أسماؤه»[42].

ولعلّ الباحث يرى عبر ذلك، انّ أبا العلاء في اللزوميات كان همّه الأكبر الإنسان وما يدور حوله من قضايا، حاول تفسيرها، وكشفه الحقائق عبر نقده للواقع الذي عاشه ذلك الإنسان بآليات متعدّدة منها ما كان بصورة مباشرة، وبصورة غير مباشرة[43]. وقد أشار الدكتور كمال اليازجي إلى الطرق المباشرة وهي ثلاثة:

1- بسط الآراء.
2- الوعظ والإرشاد.
3- الانتقاد والسخر.

وهذه الطرق واضحة سار عليها معظم الشعراء، من خلال إظهار العيوب، وتجسيم العواقب الناتجة عن ذلك، والحثّ على الإصلاح وترك المفاسد، والاتّجاه إلى الله لأنّه السبيل للخلاص، وغيرها من المواضيع.

أمّا الطرق غير المباشرة ـ وهي التي سنتحدّث فيها ـ ، فهي:

1- سرد العبر التاريخية والاستشهاد بالحوادث والأخبار.
2- إيراد القصص والمحاورات.
3- مخاطبة العجماوات وذلك على سبيل التجريد (يخاطب الحيوان والجماد، ويستنطق الأموات والعجماوات)[44].

فالمعرّي نقد الواقع الذي عاشه ذلك الإنسان في ظلّ ذلك المجتمع بصور وبطرق غير مباشرة، ومن ذلك استعماله لبعض قصص الأنبياء وبعض الشخصيات وكيف رمزت إلى الظلم والاضطهاد من جانب، وكيف رمزت إلى الخير ونشر السلام من جانب آخر[45]، ومن ذلك قوله في قصّة موسىγ[46]؟!

تقدَّم صاحبُ التوراةِ موسى وأوقعَ في الخسارِ، من اقتراها
وقالَ رجالُهُ وحيٌ أتاه؛ وقال الظالمون: بل افتّراها

وهذه القصّة معروفة وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم، وكيف أنّ قوم موسىγ قد كذّبوا ما أُنزل عليه وهي التوراة وادّعو أنّ موسىγ كتبها ثمّ بلّغها إليهم، وهم بذلك قد أوقعوا الظلم عليهم ـ إلى غير ذلك من الصور الكثيرة التي يحويها ديوان اللزوميات.

وكذلك من الصور النقدية غير المباشرة، استعماله للأمثال العربية المعروفة التي حملت في ثناياها جوانب إيجابية وجوانب سلبية لم تنسها ذاكرة الزمن والتاريخ. وهذه الأمثال التي وظّفها المعرّي، عبّر من خلالها عن الدروس والعبر المستنبطة منها، لأنّ الأمثال ارتبطت بقصّة أو حكاية اجتماعية تناقلتها الألسن عبر العصور من دون أن يتغيّر جوهرها[47].

ومن الآليات التي اعتمدها المعرّي في نقده للواقع الأُسطورة، لأنّها «عبارة عن رؤى إنسانية للتفاعل مع الطبيعة والكائنات ومحاولة تفسير تعتمد على المجال الواسع للفكر الإنساني فلذلك هي مؤهّلة لكي تقدّم نقداً غير مباشر للواقع من خلال احتوائها أيضاً على التشكيلة الرمزية الهائلة فتحمل الأُسطورة لتقديم الواقع بشكل غير مباشر»[48]. ويورد الدارس أمثلة لتوظيف الأُسطورة في شعر المعرّي ومنه ذلك قوله[49]:

يقولونَ صنعٌ من كواكب سبعةٍ وما هو إلّا من زعيم الكواكبِ
إذا رفَعَتْ تلك المواكبُ قسطلاً فرافعُهُ للعين مُجرى الكواكبِ

فيعلّق الدارس ويقول: «قوله هذا تفنيداً لزعم العرب واعتقاداتهم بأنّ الكواكب السبعة تتحكّم بأقدار الكون والخلائق ... وعند تأمّل توظيف أبي العلاء لمثل هذه الأساطير نلمس رغبته الظاهرة في نقد رؤى البشر وتظرتهم لطبيعة العلاقة بين الإنسان والطبيعة، ويرى أبو العلاء انّ الحكمة والقناعة المنطقية تقول انّ وراء هذا الكون مدبّر وخالق يقوم له كلّ شيء بالطاعة، وانّ تلك الاعتقادات ناشئة من خلل بالعقول والرؤية غير الصائبة لآثار وبدائع خالق الوجود سبحانه تعالى»[50]. وغير هذه الأمثلة كثير[51].

ومن الصور التي اعتمدها المعرّي في نقده الغير مباشر: «المقاربة والتشبيه، والاستدلال والرمز، وضرب الأمثلة»[52]. إلّا أنّ من الباحثين من يرى أنّ أبا العلاء يخفي جزءاً مهمّاً في لزومياته وانّ لديه سرّاً لا يودّ أو لا يستطيع افشاءه[53]، ودليل ذلك قوله[54]:

ولديّ سرٌّ، ليس يمكن ذكرُهُ يخفى على البصـراءِ، وهو نهارُ

وقوله أيضاً[55]:

بني زمني ،هل تعلمون سرائراً علمتُ ولكنّي بها غيرُ بائحِ

ومن هنا يرى الدكتور عبدالفتّاح كيليطو انّ في اللزوميات «مكوّنين اثنين لا انفصام لهما: من جهة ما دونه، أي ما يمكن قراءته؛ ومن جهة أُخرى ما لم يدوّنه، وما لا يمكن بالتالي الاطّلاع عليه»[56] لذلك فإنّ إيثار المعرّي للغريب والاستكثار منه في لزومياته، إنّما سلك هذا المسلك، حتّى تخفى أغراض الكتاب على كثير من الناس، لم يكن يحب أن يظهروا عليها ... وممّا لا شكّ فيه انّ المعرّي كان يودّ لو عمي أمر كتابه، على ناس من المتشدّدين في الدين حتّى لا يتّخذوه وسيلةً إلى إهدار دمه. لذلك راح يصطنع الألغاز، لإخفاء أغراضه على كثير ممّن يتناولون كتابه[57].

ومن هنا فإنّ جزءاً ممّا في ذهنه لا يظهر على صفحات الكتاب، غير ماثلٍ للعيان، ولذلك يأتي التساؤل، لماذا لا يذيع الأسرار التي يزعم أنّه بها عليم[58]، فتأتي الإجابة من قوله[59]:

وأصمُتْ فإنّ كلام المرءِ يُهلكهُ وإن نطقتَ، فإفصاحٌ وإيجاز

فالمعرّي «يدعو إلى التزام الصمت، اتّقاءً للشرّ وحرصاً على السلامة، ولكنّه يعلم انّ الصمت غير ممكن في كلّ الأحوال، فينصح المخاطب بأن يكون لسانه طلقاً حتّى لا يوسم بالعي، وكلامه مختصراً حتّى لا ينعت بالهذر، والإيجاز أن يكتفي المرء بقول ما لابدّ منه، ثمّ يعود إلى الصمت علماً بأنّ الصمت غاية الإيجاز[60]:

أوجزَ الدهرُ في المقالِ، إلى أن جعلَ الصّمتَ غايةَ الإيجازِ»[61]

لذلك فالمعرّي يدعو القارئ إلى نهج قراءة تكشف له عمّا لم يكتبه، أو عمّا كتبه بين السطور، وبذلك يطالب بقراءة حذرة، يقظة، مرتابة[62]: كقوله[63]:

ومن تأمّل أقوالي رأى جُملاً يظلّ فيهنّ سرّ الناس مشروحاً

وممّا تقدّم من آراء الدارسين المحدثين لدوافع نشأة اللزوميات يمكن ملاحظة أنّ الدوافع لم تقتصر على عاملٍ واحد، وإنّما هناك مجموعة من العوامل تآصرت فيما بينها وأنتجت هذا الديوان العظيم، منها: موهبة الشاعر الفذّة والحافظة اللغوية التي تعدّ على رأس هذه الدوافع. فالمعرّي أراد إبراز تلك الموهبة وتلك المقدرة بعد أن عاش في عالم العزلة وعالم الفراغ الذي لا ينقضي في نفس الليالي وتشابه الأيّام، ذلك الفراغ الذي دفعه إلى أن يصبّ طاقته في ديوان قيّد نفسه فيه وهو بهذا العمل «واعٍ تماماً ما يعنيه هذا عند قرّاء شعره، وناقديه، وقد قال بشجاعته المعتادة وصدقه الذي لا يخونه»[64].

فرض عليه هذا الفراغ وتلك العزلة التي اختارها لنفسه، عالماً خاصّاً هو عالم اللغة الذي أصبح عالمه الوحيد، فأراد من خلاله إبراز مقدرته وتفوّقه على غيره من الشعراء، وهو بذلك أثار روح التحدّي لديه، خاصّة بعد أن كانت تلك الأشعار في مخاطبة الخاصّة من العلماء والفقهاء من ذوي المعرفة والعلم.

فتلاعب بالألفاظ اللغوية، فيوردها متشابهة ثمّ يفسّرها وكأنّه عالم من علماء اللغة، وتلاعب بالنحو والصرف، محاولة منه لإبراز تلك الموهبة والمقدرة التي لم تأت من الفراغ، بل بالدرس الطويل عن شيوخه وكثرة قراءاته ورويه للأشعار، ولم يكن ذلك نتيجة العبث واللهو واللعب.

فكانت إبراز المقدرة الفنّية الدافع الأبرز من إنشاء تلك الأشعار وذلك الديوان، ولكن المعرّي لم يقف عند حدود ذلك، بل أراد معالجة موضوع أسمى وأهمّ، حتّى صار همّه الأكبر ألا وهو موضوع الإنسان بوصفه عنصراً تحكمه علاقات وواجبات تجاه المجتمع، وما يدور حوله من قضايا حاول تفسيرها. ونقد ذلك المجتمع بطرق متنوّعة متعدّدة، بطرق مباشرة من خلال بسط الآراء والوعظ والإرشاد، والانتقاد والسخر، وطرق غير مباشرة، كسرد العبر التاريخية وقصص الأنبياء والحوادث والأخبار والأمثال ... وغيرها من الطرق.

أبو العلاء أراد لذلك المجتمع أن الاصلاح وأن يترك الأُمور السلبية التي سار عليها معظم الناس في ذلك المجتمع، ولعلّ في مقدّمة اللزوميات الدليل الأكبر على ذلك، بقوله «... وبعضها تذكير للناسكين، وتنبيه للغافلين، وتحذير من الدنيا ...»[65].

فغايته التحذير من الدنيا والإرشاد إلى الصلاح، والتوبة في الآخرة.

هذا فضلاً عن تلك الدوافع النفسية التي أراد من خلالها المعرّي التنفيس والتعويض عن تلك الحالة التي وصل إليها جرّاء تلك العزلة وذلك السجن. فكانت كلّ تلك العوامل من دوافع نشأة اللزوميات.

الهوامش :

([1]) لسان العرب: مادّة دفع.
([2]) ينظر: أساس البلاغة: 190.
([3]) الدافعية والانفعال، ادوارد. ج موراي: 28.
([4]) الدوافع في العهد القديم وموقف القرآن منها، رسالة ماجستير، نجلاء مصطفى بدوي: 58.
([5]) ينظر: م . ن:64
([6])الدوافع في العهد القديم وموقف القرآن منها: 64.
([7]) جولة في لزوميات المعرّي: 59.
([8])ينظر: م . ن: 59.
([9]) ينظر: شاعرية أبي العلاء في نظر القدامى: 159.
([10]) ينظر: م . ن: 159.
([11]) ينظر: م . ن: 159.
([12]) أبو العلاء المعرّي مبصر بين عميان: 129.
([13]) حكيم المعرّة: 18.
([14])ينظر: شاعرية أبي العلاء: 98.
([15]) م.ن : 98.
([16]) ينظر: لزوميات أبي العلاء، رؤية بلاغية نقدية: 26 - 27.
([17])مع أبي العلاء في سجنه: 101.
([18]) ينظر: مع ابي العلاء في سجنه: 102 - 103.
([19]) ينظر: م . ن: 105 - 106.
([20])الاغتراب في حياة المعرّي وأدبه، مجلّة جامعة دمشق: 30.
([21]) مع أبي العلاء في سجنه: 107.
([22]) ينظر: م . ن: 109.
([23])ينظر: مع ابي العلاء في سجنه: 110 - 114.
([24]) م . ن : 110.
([25]) لزوميات أبي العلاء ،رؤية بلاغية نقدية: 27.
([26])م . ن: 27 - 28.
([27])لزوميات أبي العلاء، رؤية بلاغية نقدية: 28.
([28]) ينظر:لزوميات ابي العلاء، رؤية بلاغية نقدية: 29 - 30.
([29])ينظر: مقدّمة اللزوميات، ومنها كلامه عن تقسيم القوافي إلى ثلاثة أقسام (الذلل، النفر، الحوش).
([30]) لزوميات أبي العلاء، رؤية بلاغية نقدية: 32 - 33.
([31])جولة في لزوميات المعرّي: 49.
([32]) ينظر: م . ن: 50 - 56.
([33]) ينظر: م . ن: 35.
([34]) ينظر: م . ن: 34 - 35.
([35]) ينظر: م . ن: 47.
([36])م . ن: 47.
([37]) لزوميات أبي العلاء، رؤية بلاغية نقدية: 103.
([38]) : م . ن: 74.
([39])مع أبي العلاء في سجنه: 109.
([40]) جولة في لزوميات المعرّي: 59.
([41]) ينظر: جولة في لزوميات المعري : 59.
([42]) الأُسطورة في أدب أبي العلاء: 357.
([43])ينظر: جولة في لزوميات المعرّي: 143.
([44]) ينظر: م . ن : 143 - 148.
([45]) ينظر: المضامين التراثية في شعر أبي العلاء: 102.
([46])لزوم ما لا يلزم: 2 / 623.اقتراها : تتبعها.
([47]) ينظر: المضامين التراثية: 159.
([48]) الأُسطورة في أدب أبي العلاء: 358.
([49]) لزوم ما لا يلزم: 1 / 144. القسطل : غبار الحرب. مجري الكواكب: مجري المياه.

([50]) الأُسطورة في ادب ابي العلاء: 364.
([51]) ينظر: م . ن: مثلاً صفحة 365، 366، 373 وغيرها.
([52]) م . ن : 358.
([53]) ينظر: أبو العلاء أو متاهات القول: 47.
([54]) لزوم ما لا يلزم: 1 / 465.
([55]) لزوم ما لايلزم: 1 / 296.
([56]) أبو العلاء المعرّي أو متاهات القول: 47.
([57]) ينظر: تجديد ذكرى أبي العلاء: 204.
([58]) ينظر: أبو العلاء أو متاهات القول: 47.
([59]) لزوم ما لا يلزم: 1 / 622.
([60]) م . ن: 1 / 633.
([61])أبو العلاء أو متاهات القول: 48.
([62]) ينظر: م . ن: 49.
([63]) لزوم ما لا يلزم: 1 / 293.
([64])لزوميات أبي العلاء رؤية بلاغية نقدية: 6.
([65]) لزوم ما لا يلزم، المقدّمة: 3.

ثبت المصادر والمراجع

1. أبو العلاء المعرّي أو متاهات القول، عبدالفتّاح كيليطو، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء ـ المغرب، ط1، 2000م.
2. أبو العلاء مبصر بين عميان، خليل شرف الدين، طبعة دار مكتبة الهلال، بيروت، 1983.
3. أساس البلاغة، جار الله الزمخشري، دار صادر، بيروت، د.ت.
4. الأسطورة في أدب أبي العلاء (دراسة وتحليل)، أطروحة دكتوراه، ماجد حميد فرج عبّاس، كلّية الآداب، الجامعة المستنصرية، 2006م.
5. تجديد ذكرى أبي العلاء، طه حسين، طبعة دار المعارف، القاهرة، الطبعة السادسة، 1963.
6. جولة في لزوميات المعرّي (رسالة ماجستير)، د. كمال اليازجي، الجامعة الامريكية، بيروت، 1944.
7. حكيم المعرّة، عمر فروخ، مطبعة الكشّاف، بيروت، 1948م.
8. الدافعية والانفعال، ادوارد ج. موراي، ترجمة: د. أحمد عبدالعزيز سلامة، مراجعة، د. محمّد عثمان نجاتي، دار الشروق، الطبعة الأولى، 1408هـ - 1988م.
9. الدوافع في العهد القديم وموقف القرآن منها (رسالة ماجستير)، نجلاء مصطفى بدوي، قسم مقارنة الأديان، معهد البحوث والدراسات الآسيوية، جامعة الزقازيق، 1422هـ - 2001م.
10. شاعرية أبي العلاء في نظر القدامى، محمّد مصطفى بلحاج، طبعة الدار العربية للكتاب، ليبيا وتونس، 1976م.
11. لزوم ما لا يلزم (اللزوميات)، أبو العلاء المعرّي، دار صادر، بيروت 1961م.
12. لزوميات أبي العلاء (رؤية بلاغية نقدية)، د. إبراهيم محمّد عبدالله الخولي، دار الطباعة الحديثة، 1993.
13. لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمّد بن مكرم بن منظور، دار صادر للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، بيروت، 1997.
14. المضامين التراثية في شعر أبي العلاء المعرّي (دراسة موضوعية وفنية)، أطروحة دكتوراه، أسماء صابر جاسم التكريتي، كلّية الآداب، جامعة بغداد، 2002م.
15. مع أبي العلاء في سجنه، طه حسين، القاهرة، دار المعارف، 1963م.

المجلّات والدوريات

1. الاغتراب في حياة المعرّي وأدبه، د. حسين جمعة، مجلّة جامعة دمشق، المجلّد 27، العدد الأوّل + الثاني، 2011.